

أنثروبولوجيا الأشياء وذاكرة المكان:

الحايك الوزاني بشمال المغرب وسيرة المعنى في زمن العولمة

عبد العزيز الطويل

إشراف: الأستاذ عبد الرحيم العطري

ماستر الأنثروبولوجيا والمجتمع والثقافات

جامعة محمد الخامس — الرباط

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المملكة المغربية

مستخلص الدراسة

يندرج هذا المقال ضمن مسار بحثي وأنثروبولوجي متواصل يهدف إلى التعريف بالتراث المحلي لمدينة وزان والدفاع عنه وتثمينه، من خلال عمل ميداني أُنجز بمعية طلبة باحثين بسلك ماستر الأنثروبولوجيا والمجتمع والثقافات بجامعة محمد الخامس بالرباط، تحت إشراف الأستاذ عبد الرحيم العطري، إلى جانب الانخراط في مهرجانات وندوات ولقاءات ثقافية متعددة ذات صلة بالموروث المحلي. وقد أتاح هذا الانخراط، بوصفه شكلاً من أشكال الملاحظة بالمشاركة، مقارنة الحايك الوزاني وفضاءات المدينة باعتبارهما حوامل للذاكرة الجماعية والرموز الاجتماعية والثقافية، لا مجرد موضوعات جامدة للدراسة.

يسعى المقال إلى مساءلة وضعية الأشياء التراثية داخل سياق العولمة وهيمنة منطق التسليع، من خلال اتخاذ الحايك الوزاني نموذجاً للتحليل، اعتماداً على تصور "أرغون أبادوراي" حول "الحياة الاجتماعية للأشياء"، مع استحضار بعض الإسهامات النظرية لكل من "بيير بورديو" و"جورج بلاندييه" لفهم التحولات الرمزية والاجتماعية التي تطال الموروث الثقافي المحلي. وينطلق البحث من إشكالية مركزية مفادها: كيف تستمر الأشياء التراثية في إنتاج المعنى داخل الحاضر رغم التحولات الاقتصادية والثقافية التي يعرفها المجتمع المعاصر؟

واعتمد المقال مقارنة أنثروبولوجية تأويلية ارتكزت على الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات مع الحرفيين والفاعلين المرتبطين بصناعة الحايك، إضافة إلى تحليل الخطابات والممارسات الثقافية المرتبطة به، بما يسمح بفهم سيرورة تحول الأشياء التراثية من مجرد أدوات استعمالية إلى رموز ثقافية حاملة للذاكرة والمعنى والهوية.

الكلمات المفتاحية: الحايك؛ الأشياء الاجتماعية؛ الدينامية؛ الحرف؛ الدرازة.

Abstract

This article is part of an ongoing anthropological research trajectory aimed at promoting, safeguarding, and valorizing the local heritage of the city of Ouazzane through fieldwork conducted alongside graduate students from the Master's program in Anthropology, Society, and Cultures at Mohammed V University in Rabat, under the supervision of Professor Abdelrahim Al-Atri. This engagement also extended to participation in festivals, seminars, and cultural encounters related to local heritage. Such involvement, as a form of participant observation, enabled an approach to the Ouazzani Haik and the spaces of the city not merely as static objects of study, but as carriers of collective memory and social and cultural symbolism.

The article seeks to examine the condition of heritage objects within the context of globalization and the dominance of commodification, by taking the Ouazzani Haik as a case study. It draws on Arjun Appadurai's concept of "the social life of things," while also mobilizing theoretical contributions from Pierre Bourdieu and Georges Balandier to understand the symbolic and social transformations affecting local cultural heritage. The study is guided by a central question: how do heritage objects continue to produce meaning in the present despite the economic and cultural transformations shaping contemporary society?

The article adopts an interpretive anthropological approach based on participant observation, interviews with artisans and actors involved in the making of the Haik, and the analysis of cultural discourses and practices associated with it. This approach aims to understand how heritage objects are transformed from utilitarian items into cultural symbols that carry memory, meaning, and identity.

الإشكالية

كيف يمكن فهم سيرورة الموروث الثقافي المحلي، ممثلاً في الحايك وفضاءات مدينة وزان، في ظل هيمنة العولمة وموجة التسليح؟

وهل تظل هذه العناصر مجرد بقايا رمزية للماضي، أم أنها تواصل إنتاج المعنى داخل الحاضر عبر حياتها الاجتماعية وتحولاتها الرمزية والثقافية؟

المنهج

يرتكز هذا المقال على مقارنة أنثروبولوجية تأويلية، تستند على:

– روح الميدان في علاقته بالكتابة والنص الانثروبولوجي، انطلاقاً من الادبيات الانثروبولوجية ذاتها. ومن هذا المنطلق، نسعى إلى مساءلة العلاقة المركبة بين التجربة الميدانية والكتابة الانثروبولوجية عبر مجموعة من التساؤلات المركزية:

- كيف قارب الانثروبولوجيون العلاقة بين الميدان والكتابة؟
- كيف تحدثوا عن الميدان؟
- كيف نظروا إلى النص الانثروبولوجي بوصفه بناء تأويلي للواقع الاجتماعي؟

الواقع هذه الأسئلة على أهميتها الاستيمولوجية والمنهجية لم تحظ بالعناية الكافية داخل التقليد الانثروبولوجي الكلاسيكي، إذ ظل الحديث عن التجربة الميدانية وعن شروط إنتاج النص الانثروبولوجي مرتبطاً بالباحث ذاته وبخصوصيات شخصيته وتجربته الفردية، لذلك بقي جانب كبير من هذه الخبرات حبيس اليوميات الخاصة والأرشيفات والرفوف.

- عمل ميداني اعتمد آلية الملاحظة بالمشاركة والمقابلات مع الحرفيين والفاعلين المرتبطين بصناعة الحايك.
- الانخراط في الفعاليات الثقافية وتحليل الخطابات المرتبطة بها، خاصة الكلمة التي شاركت بها ضمن فعاليات المهرجان الوطني الرابع للحايك بوزان.
- توظيف مفهوم “الحياة الاجتماعية للأشياء” عند أرغون أبادوراي باعتباره مدخلاً نظرياً لفهم التحولات التي تعرفها الأشياء التراثية داخل المجتمع المعاصر.

وقد انتظم العمل البحثي ضمن محورين متكاملين:

المحور الأول: مقارنة ميدانية قائمة على التزول إلى الحقل واستنطاق الذاكرة المحلية، انطلاقاً من تموقعي كباحث منتم إلى مدينة وزان، الأمر الذي أتاح مساءلة التاريخ الاجتماعي للمدينة واستحضار التحولات التي عرفتها علاقتها بالموروث الثقافي المحلي، وخاصة الحايك باعتباره جزءاً من الذاكرة الجماعية والرمزية للفضاء الوزاني. كما شمل هذا المحور تفكيك وتحليل مضامين مداخلتي العلمية المقدمة ضمن فعاليات المهرجان الوطني للحايك بمدينة وزان¹، بدعوة من جمعية التنمية المستدامة، باعتبارها مادة خطابية تكشف تمثلات الفاعلين المحليين للموروث الثقافي ووظائفه الرمزية والاجتماعية.

¹ عبد العزيز الطويل، “أنثروبولوجيا الأشياء وذاكرة المكان: الحايك الوزاني وسيرة المعنى في زمن العولمة” (مداخلة علمية)، المهرجان الوطني الثاني، تنظيم جمعية التنمية المستدامة، المركز الثقافي بمدينة وزان، المغرب، 2025

المحور الثاني: تمثل في عمل ميداني إثنوغرافي أنجزه فريق بحثي من طلبة ماستر الأنثروبولوجيا والمجتمع والثقافات بجامعة محمد الخامس بالرباط¹، حيث تم إجراء مقابلات ميدانية مع عدد من الحرفيين والفاعلين المرتبطين بصناعة الحايك، خاصة حرفيي "الدراسة" والخياطة التقليدية، قصد فهم التحولات التي مست الحرفة، ورصد تمثلات الفاعلين الاجتماعيين لعلاقة التراث بمنطق السوق والعولمة، وكذا الوقوف على الكيفية التي تستمر بها الأشياء التراثية في إنتاج المعنى داخل المجتمع المحلي.

المحور الأول: أنثروبولوجيا الأشياء وذاكرة المعنى

1- الأشياء وهي تعيش: من السلعة إلى سيرة اجتماعية

تناول الاستاذ عبد الرحيم العطري أفكار وتصورات، ارغون ابادوراي حول "سيرة حياة" السلع والخدمات وأعطى مثالا معبرا بالخاتم، "الذي ترفع بشأن" الحياة الاجتماعية للأشياء، كان قبلا معدنا نفيسا أو عاديا في الطبيعة لكن بوصوله إلى يد الصائغ فقد انخرط في "دورة حياة" اجتماعية ثقافية ستغير من وضعيته ومكانته ودوره، تبعا للتوظيف والاستعمال إذ بعد التنفن في صياغته ونقشه وتطعيمه بالاحجار الكريمة، سيتحول إلى قطعة فنية سلعة قابلة للبيع والشراء وبعدها سيشرى ويقدم هدية وإعلانا للخطوبة والزواج. ومنه سيكتسب وظيفة الترميز والتطقيس بما يجعل من حامله أو حاملته، بالنسبة للجماعة، شخصا في عداد المخطوبين أو المتزوجين.²

وإذا ما حاولنا تتبع السيرة الاجتماعية للحايك الوزاني، فإن بدايته كانت مجرد صوف يُستقدم من البوادي المجاورة يُعرض داخل أسواق وزان. وهناك تبدأ أولى مراحل تحوله، حين تتولى النساء عملية تنقيته وغسله في فضاءات معلومة بالمدينة، حيث كانت النسوة يجتمعن في أجواء جماعية تتخللها الأهازيج والأنغام الشعبية، في مشهد أقرب إلى طقس احتفالي يعكس روح التضامن والتشارك.

بعد ذلك ينتقل الصوف إلى مرحلة الغزل، وهي عملية لا تخلو من دلالات ثقافية عميقة، إذ كانت النساء يصطحبن معهن فتيات يافعات، بما يجعل من هذه الممارسة شكلاً من أشكال نقل الخبرة والذاكرة بين الأجيال. ثم يُعرض الصوف داخل "الدلالة" باعتبارها فضاءً اقتصادياً تقليدياً، قبل أن يتولى "الدراز" عملية النسيج، ليأتي بعد ذلك دور الخياط الذي يمنح الحايك صورته النهائية في أسمى حلة.

غير أن رحلة الحايك لا تنتهي عند حدود الصناعة، بل تبدأ حياة اجتماعية جديدة حين ترتديه المرأة الوزانية والمغربية عموماً، فيتحول من مجرد لباس إلى علامة ثقافية تحتزن معاني الهوية والاحتشام والانتماء، وتصبح خيوطه حاملة لذاكرة جماعية تختصر جانباً من التاريخ الاجتماعي والثقافي المغربي.

كما أن الحايك قد يبدو لنا شيئاً مادياً جامداً، غير أنه قبل أن يصل إلينا مكتمل الأركان، يتحرك داخل شبكة من الطقوس والعلاقات التي يمتزج فيها الديني بالعرفي، والاقتصادي بالاجتماعي والثقافي. فصناعته لا تختزل في فعل تقني صرف، بل هي ممارسة اجتماعية مشبعة بالمعنى، ينساب فيها الزمن اليومي للمدينة العتيقة وفق إيقاع خاص.

¹ المجموعة البحثية المكونة من الطلبة الباحثين في سلك ماستر أنثروبولوجيا والمجتمع والثقافات، عبد العزيز الطويل، ياسين بزازير، هبة حزر

وسام تعلق، بحث ميداني في مدينة وزان حول وشات الدراسة بتاريخ، 20 شهر مارس 2026

² العطري، عبد الرحيم، أنثروبولوجيا السوق والتسوق: التأويل الثقافي للممارسات الاقتصادية، فاس: مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، سلسلة إصدارات مركز ابن خلدون لدراسات الهجرة والمواطنة، الكتاب رقم 45، الطبعة الأولى، 2026، ص 9

في وزان العتيقة، وما إن يرفع المؤذن أذان العصر، وهو التوقيت ذاته الذي يجتمع فيه الدرّازة بسوق الدلالة لعرض منتجاتهم، حتى تبدأ حركة جماعية تكاد تشبه طقساً يومياً متكرراً. ولأن منطق السوق لا ينتظر، كان الحرفيون يتوجهون إلى مسجد صغير مجاور للمسجد الأعظم، يُعرف محلياً بـ “المديرسة”، لأداء الصلاة مع الطلعة الأولى للأذان، فيما يشبه اختصاراً زمنياً تفرضه ضرورات الحرفة والتجارة.

وقد اشتهرت هذه الصلاة في الأوساط الحرفية بما يسمى “صلاة المزروبين”، أي صلاة المستعجلين، وهي تسمية شعبية تختزل علاقة الحرفي بالزمن؛ زمن العبادة من جهة، وزمن السوق من جهة أخرى. والأكثر دلالة أن لهؤلاء الحرفيين إمامهم الخاص، وكان الجماعة الحرفية تعيد تنظيم المجال الديني بما يتلاءم مع إيقاعها الاقتصادي. لذلك، ما إن يسلم الإمام حتى ترى الدرّازة يخرجون مهولين نحو سوق الدلالة، دون التوقف عند الأذكار والأدعية التي تعقب الصلاة عادة، في مشهد تختلط فيه الروحانية بعجلة المعاش، وكان المدينة العتيقة كانت تعقد مصالحة يومية دقيقة بين نداء السماء ونداء السوق¹.

غير أن رحلة الحايك لا تنتهي عند حدود الصناعة، بل تبدأ حياة اجتماعية جديدة حين ترتديه المرأة الوزانية والمغربية عموماً، فيتحول من مجرد لباس إلى علامة ثقافية تختزن معاني الهوية والاحتشام والانتماء، وتصبح خيوطه حاملة لذاكرة جماعية تختصر جانباً من التاريخ الاجتماعي والثقافي المغربي.

وفي هذا الإطار، تصبح الأشياء التراثية مجالاً للتوتر بين منطقتين متقابلين: منطق التسليع الذي تفرضه موجة العولمة الجارفة، ومنطق المعنى المستمد من الحياة الاجتماعية للأشياء وما تختزنه من رمزية وذاكرة جماعية.

وقد عبرت عن هذا التحول في مشاركتي العلمية ضمن المهرجان الوطني للحايك بقولسي: “تصبح الحدائث، في إطار العولمة، توسيعاً لنمط الإنتاج الرأسمالي، مما يقتضيه ذلك من تغطية على القيم الثقافية ذات الأبعاد اللامادية”²...

غير أن هذا التوتر لا يؤدي بالضرورة إلى اندثار المعنى، بل قد يفتح المجال أمام إعادة تشكيله داخل سياقات جديدة، حيث تواصل الأشياء التراثية إنتاج دلالاتها رغم التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي تعرفها المجتمعات المعاصرة.

2_ الحايك الوزاني : من الشيء إلى الحكي

في كلمتي ضمن مهرجان الحايك، حاولت التقاط هذه “السيرة الاجتماعية” للشيء حين قلت: “الحايك الوزاني ليس مجرد حياكة، بل هو حكي. ليس مجرد تطريز، بل طراز. ليس مجرد خيوط ووصوف، وإنما خطوط حياة ومسارات عيش وأحلام وتطلعات”³.

كما أن قولتي: “في ثنياته وطياته تختزن ألف قصة ورواية”...

كان يروم التأكيد على أن الحايك، من خلال استعماله واكتسابه لحياة اجتماعية، يتحول إلى خزان للذاكرة الجماعية، لا إلى مجرد شيء مادي خاضع لمنطق الاستعمال أو التبادل فقط.

¹ هشام بومداسة، إثنوغرافية الدرّازة الوزانية نحو دراسة سوسيو ثقافية للتركيبة الاجتماعية للحرفة — حكاية حرفة تقليدية، القرويين للنشر. ص29

² عبد العزيز الطويل، “أنثروبولوجيا الأشياء وذاكرة المكان: الحايك الوزاني وسيرة المعنى في زمن العولمة” (مداخلة علمية)، المهرجان الوطني الثاني، تنظيم جمعية التنمية المستدامة، المركز الثقافي بمدينة وزان، المغرب، 2025

³ نفسه

ومن هنا، يغدو الحايك نصاً اجتماعياً مفتوحاً على التأويل، تختلط داخله الذاكرة الفردية بالذاكرة الجماعية، ويتحول من مجرد لباس تقليدي إلى وعاء رمزي يحمل آثار الزمن ويخترن صور الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية التي نسجت حوله عبر عقود طويلة.

3- الجسد والهياتوس: الحايك كخطاب اجتماعي

من المفاهيم المركزية التي نختها بيير بورديو مفهوم "الهياتوس"¹، أي تلك البنيات الذهنية والثقافية التي تُوجه الممارسات الاجتماعية عبر التنشئة وإعادة إنتاج الموروث الرمزي داخل الجماعة. ومن هذا المنطلق، فإن الحايك لم يكن مجرد اختيار فردي، بل ممارسة اجتماعية تحتضنها الجماعة وتعكس تصوراً جماعياً للجسد والأنوثة والاحتشام.

لذلك، كانت الأرحام الأولى في مجتمعنا التقليدي حريصة أشد الحرص على تنشئة الخلف على ارتداء الحايك، باعتباره جزءاً من التربية الرمزية للمرأة. فهو، كما قلت في مشاركتي بالمهرجان الوطني للحايك: "كان حجاباً... لكنه لم يكن مجرد حجاب، بل يكثر معاني الحشمة والحياء... ويشي بأمارات الجمال".

وبذلك، نلاحظ أن الحايك في مجتمع البحث خلق توتراً رمزياً حقيقياً بين الستر والإظهار؛ فهو من جهة غطاء يحجب جسد المرأة ويحافظ على وقاره الاجتماعي، ومن جهة أخرى يفتح مجالاً للإيحاء والإثارة الجمالية، لأنه في واقع الأمر يبرز فتنة العيون بمنحها قوة تعبيرية خاصة من وراء الحجاب.

وقد قلت في هذا الصدد: "سحر العيون وإشراقها لا يمكن أن يظهر للرائي إلا من خلال فتوق الحايك وعمتاته، معلناً عرس الجمال الباهر في غير ما حاجة إلى مساحيق أو أصباغ".

وهكذا، لا يبدو الحايك مجرد قطعة قماش تؤدي وظيفة الستر، بل يتحول إلى خطاب اجتماعي وثقافي يعكس رؤية الجماعة للجسد وحدود ظهوره داخل الفضاء العام، كما يكشف عن التوتر القائم بين القيم الأخلاقية ومتطلبات الجمال داخل المجتمع التقليدي.

وفي هذا السياق، يذهب Philippe Perrot إلى أن اللباس لا يؤدي وظيفة نفعية فقط، بل يشكل نظاماً رمزياً يعكس البنيات الاجتماعية والثقافية داخل المجتمع. لذلك اعتبر أن القرن التاسع عشر "حمل معه انتصار البرجوازية، كما حمل أيضاً انتصار البدلة الحديثة، التي اخترقت تدريجياً مختلف الطبقات والأوساط الاجتماعية، فإرضاء نظامها الاقتصادي والسياسي والأخلاقي، وجاعلةً من اللباس رمزاً يختزل مختلف الامتدادات الاقتصادية والإيديولوجية"².

¹ - يعرف بورديو الهياتوس بوصفه خصيصة الفاعلين الاجتماعيين (سواء كانوا أفراداً أو جماعات أو مؤسسات) التي تتألف من بنية مبنية ومبنية، أما مبنية بواسطة ماضي المرء وظروف حاضره، كمنط تربيتها لاسرية وتعليمية ومبنية لان هياتوس المرء يسهم في تشكيل ممارساته الحاضرة والمستقبلية.

مفهوم الهياتوس عند بورديو، ت، طارق عثمان، مركز نماء للبحوث والدراسات، اوراق نماء 98

² Philippe Perrot, Une histoire du costume, Paris, Seuil, p.34.

4_ الذاكرة الجماعية : الحايك والبعد النوستالجي

وفقاً لموريس هاليفاكس (Halbwachs, 1950)، فإن الذاكرة لا تتشكل في الفراغ، بل داخل أطر اجتماعية تمنحها الاستمرار والمعنى. والحايك يمثل أحد هذه الأطر بامتياز، لما يحتله من مكانة رمزية واجتماعية تستدعي عوالم كاملة من التجارب الضاربة في القدم:

“تركيبة متناسقة من الألوان والظلال لأنوثة مهيبة... تنتشر في الأشياء والأمكنة والدكاكين والأزقة والدروب...”

في نفس السياق يذهب Philippe Perrot أن ارتداء الملابس يتضمن دلالات اجتماعية ورمزية متعددة، إذ “يُظهر، بشكل رمزي أو توافقي، طبيعة الفرد وأصالته وتقاليده وإرثه وانتماؤه الطبقي، كما يكشف عن الدين والأصل الجغرافي والانتماء وفق شفرة رمزية يقرها المجتمع ومؤسساته”¹.

فالحايك، في واقع الأمر، ليس مجرد غطاء للجسد، بل يمتد حضوره ليعم الفضاء الاجتماعي برمته، فيصبح جزءاً من الذاكرة الحضريّة ومن جمالية الأمكنة القديمة.

وبرغم من انقضاء سنوات طويلة، ما زلت أذكر كيف كانت أُمّي تعقم الحايك وتحافظ عليه بعناية، ثم تضعه في مكان يليق بمقامه الرمزي داخل البيت. ذلك المشهد لا يزال محفوراً في الذاكرة كأنه وقع بالأمس تماماً؛ رائحة المكان، وعيون الأطفال وهي تراقب ذلك الجديد بشغف ودهشة.

لقد اكتسبت تلك الفضاءات جمالياتها الخاصة من خلال الأحداث الصغيرة والمتنوعة التي عشناها فيها، فتحوّلت الأشياء البسيطة إلى مستودع حميمي للذاكرة والحنين، وصارت التفاصيل اليومية البسيطة جزءاً من السيرة العاطفية للمكان والإنسان معاً.

5_ فضاءات وزان : الأمكنة كذاكرة حية

كما أن للأشياء حياة اجتماعية، بلغة "أرغون أبادوراي"، فإن للأمكنة أيضاً ذاكرة خاصة بها. فسوق الدلالة، والدرزين، والشرشور بجي القشريين حيث كانت النسوة يغسلن الصوف، وسوق الغزل، والملاح، وورشات "الدراسة" بجي الرويضة العتيق، وباب جمعة... كلها فضاءات اكتسبت ثقلها الدلالي من خلال احتضانها لتجارب حياتية متراكمة، لذلك أمكننا القول إن هناك نوعاً من التطابق بين المكان والشخصية؛ فالمكان يمتلك بالضرورة قيماً اجتماعية وأخلاقية يُفترض حضورها، بشكل أو بآخر، في ساكنه أو عابره.

وهو الأمر الذي أكد عليه هنري ميران بقوله: “إن المكان هو الذي يؤسس الحكي... فالحدث يحتاج إلى مكان كما يحتاج إلى شخصية وزمن، فالمكان هو الذي يمنح للخيال مظهر الحقيقة”².

غير أن الزمن يحوّل الأمكنة من فضاءات أليفة إلى أخرى موحشة؛ إذ خلق تحولات عميقة في دينامية المدينة العتيقة وملاحمها الرمزية، وهو المعنى الذي أشارت إليه سيزا قاسم حين اعتبرت أن: “الزمان لا يوجد مستقلاً عن المكان”³.

¹ Ibid., p.32.

² H.mitterand "Le Discours du roman " P.U.F 1980 . P194

³ سيزا قاسم، بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2004، ص 104.

والواقع أن الأزمنة المتدفقة فعلت فعلها في فضاءات مدينة وزان، فبهتت بعض التفاصيل، واختفت أخرى تحت ضغط التحولات الاجتماعية وأنماط العيش الجديدة. غير أن ملاذنا يظل دائماً هو الذاكرة، لأنها وحدها القادرة على إعادة بناء الأمكنة ومنحها حياة جديدة داخل الوجدان.

فالمدن لا تموت تماماً، ما دام هناك من يتذكرها بحنين ويعيد سردها بالكلمات.

6- بين الكوني والمحلي : أي أفق للموروث الثقافي الوزاني؟

إن الإشكال الحقيقي لا يكمن في التعارض بين التقليد والحداثة، بل في غياب مشروع مجتمعي قادر على إدماج الموروث ضمن رؤية تنموية متعددة الأبعاد.

وفي مداخلتني بالمهرجان الوطني الثاني للحايك، أشرت بوضوح إلى أن: “هذا الوضع لا يرجع إلى الموروث نفسه، بل إلى عدم وجود مشروع مجتمعي قادر على إدماجه”...

وفي حالة ما إذا توفرت هذه الإرادة لدى الفاعلين المحليين بالمدينة، فإن تراثنا المحلي يمكن أن يتحول من عبء رمزي إلى إمكان حقيقي لإنتاج التنمية، بعيداً عن المقاربات المحكومة بالهاجس الظرفي أو التزعة الاستعراضية.

فالموروث الثقافي ليس مجرد بقايا من الماضي، بل رأس مال رمزي قابل للتحويل إلى قوة اقتراحية وجمالية واقتصادية متى توفرت الرؤية والوعي الجماعي. كما أن حماية التراث لا تعني تجميده داخل المتاحف والاحتفالات الموسمية، وإنما إعادة إدماجه في الحياة اليومية باعتباره عنصراً من عناصر الهوية والاستمرارية التاريخية للمجتمع.

المحور الثاني: العمل الميداني

الحرف التقليدية في وزان: قراءة إثنوغرافية في تحولات الدرازة والمنتجات الصوفية بين الذاكرة ومنطق السوق.

1- إطار العمل الميداني

أنجز هذا العمل الميداني من طرف مجموعة من الطلبة الباحثين بسلك ماستر الأنثروبولوجيا والمجتمع والثقافات بجامعة محمد الخامس بالرباط.

وقد تمحور مجتمع البحث حول المدينة العتيقة بوزان، وخاصة ورشات الدرازة والحياطة والحرف المرتبطة بالصوف داخل النسيج التقليدي للمدينة.

ويندرج هذا الاشتغال ضمن مقاربة إثنوغرافية تروم فهم التحولات التي تعرفها الحرفة التقليدية، ليس فقط كفاعل اقتصادي، بل كمنظومة اجتماعية ورمزية تعكس تحولات المجتمع المحلي.

2- إشكالية البحث

انتقلت الحرف التقليدية بمدينة وزان من اقتصاد معيشي تضامني قائم على التبادل والتكافل، إلى مجال يخضع تدريجياً لمنطق السوق والتسليح، وهو ما أعاد تشكيل مكانة الحرفي ووظيفته داخل المجتمع.

وانطلاقاً من ذلك، تتمحور إشكالية هذا البحث حول الأسئلة التالية:

كيف تطورت حرفة الدرازة والحرف المرتبطة بالصوف في وزان؟
كيف تتحول الحرفة من قيمة اجتماعية ورمزية إلى سلعة خاضعة لمنطق السوق؟
كيف يتفاوض الحرفيون مع هذه التحولات البنوية؟
وما هي إمكانات تميم هذه الحرف في إطار تنمية محلية مستدامة؟

3_ أهداف البحث

يسعى هذا العمل الإثنوغرافي الاستطلاعي إلى:
توثيق الحرف التقليدية المرتبطة بالصوف بمدينة وزان.
رصد المسارات المهنية والحياتية للحرفيين.
تحليل التحول من اقتصاد الكفاف إلى اقتصاد السوق.
تشخيص الإكراهات البنوية التي تواجه الحرفة.
استشراف آفاق إدماجها ضمن مشاريع التنمية المحلية.

4_ المنهجية

اعتمد هذا البحث على المنهج الإثنوغرافي القائم على العمل الميداني المباشر، من خلال:
الملاحظة بالمشاركة داخل الورشات الحرفية.
مقابلات شبه موجهة مع الحرفيين والفاعلين المحليين.
الوصف الكثيف للفضاءات والممارسات. (Thick Description)
توثيق مراحل الإنتاج والخطابات المحلية المرتبطة بالحرفة.
وقد شمل الميدان عدداً من الحرف، أبرزها: الدرازة، الخياطة التقليدية، الخراطة، والحرف المرتبطة بالمنتجات الصوفية.

5_ دفتر الميدان : من التسجيل إلى بناء المعرفة

في انسجام مع هذا التوجه المنهجي، شكّل دفتر الميدان أداة مركزية في بناء المعرفة الإثنوغرافية. لم يكن مجرد وسيلة لتدوين المعطيات، بل فضاءً أولياً تتشكل فيه الملاحظة قبل أن تتحول إلى تحليل.
وقد تم اعتماد:

توثيق شامل لكل زيارة من حيث الزمان والمكان وطبيعة الحرفة.

وصف دقيق للفضاءات الحرفية (الأدوات، المواد، الإيقاع اليومي، الأجواء الحسية).

تتبع مراحل الإنتاج داخل الورشات.

تسجيل المقابلات مع الحرفيين حول مساراتهم المهنية وتمتلكهم للمستقبل.

تدوين ملاحظات شخصية وتأملات ميدانية مباشرة.

إنجاز خلاصات يومية بعد كل حصة ميدانية.

وقد أتاح تعدد دفاتر الباحثين داخل العمل الجماعي تنوعاً في زوايا النظر، مما أغنى التحليل وعمق فهمنا للميدان.

6- التشخيص الإثنوغرافي للميدان

في أزقة المدينة العتيقة لوزان، حيث تختلط روائح الصوف المصبوغ بخشب الورشات القديمة، لا تُصنع السلع فقط، بل تُنسج أنماط من الحياة والمعنى.

لقد أظهر العمل الميداني أن الحرف التقليدية لم تكن مجرد نشاط اقتصادي، بل كانت نظاماً اجتماعياً ورمزياً متكاملًا يعكس هوية المدينة وذاكرتها الحية.

غير أن هذه الحرف تعيش اليوم تحولات عميقة، يمكن وصفها بإعادة تشكيل القيمة داخل الحقل الحرفي، حيث تنتقل تدريجياً من مجال رمزي إلى مجال تسليعي تحكمه آليات السوق.

في شهادات الحرفيين، تتكرر عبارة دالة: “من سيحمل المشعل بعدنا؟”

وهي عبارة تختزل قلقاً عميقاً مرتبطاً بانقطاع نقل المعرفة بين الأجيال، وتكشف توتراً واضحاً بين الذاكرة الحرفية ومتطلبات الحداثة.

كما أبرزت المعطيات الميدانية مجموعة من الإكراهات، من بينها:

ارتفاع أسعار المواد الأولية.

ضعف التكوين والتأهيل المهني.

صعوبات التسويق.

المنافسة القوية للمنتجات الصناعية.

وتعكس هذه الوضعية التحول العميق الذي تعرفه الحرف التقليدية، بين تراجع قيمتها الرمزية من جهة، وضغط التحولات الاقتصادية من جهة أخرى، في سياق عالمي يتجه نحو التسريع والاستهلاك المكثف.

7- نحو مقارنة تنموية بديلة

انطلاقاً من معطيات الميدان، لا تُطرح الحلول كإجابات جاهزة، بل كمقترحات نابعة من تمثيلات الفاعلين أنفسهم.

وفي هذا الإطار، يمكن اقتراح رؤية تنموية بديلة تقوم على:

إدماج الحرف التقليدية في الاقتصاد التضامني.

دعم التعاونيات الحرفية المحلية.

حماية العلامات الجغرافية للمنتجات التقليدية.

إدماج التكوين الرقمي في الممارسة الحرفية.

ربط الحرف بالسياحة الثقافية المستدامة.

فالحرفة ليست بقايا ماضٍ مهدد بالاندثار، بل إمكانية مستقبلية قادرة على الجمع بين الاقتصاد والثقافة والهوية.

خاتمة المحور الميداني

في النهاية، لا تكشف الحرف التقليدية بمدينة وزان عن أزمة قطاع اقتصادي فقط، بل عن تحول أعمق في علاقة الإنسان بعمله وذاكرته ومحيطه.

إن إعادة الاعتبار للحرفة ليست مجرد تدخل تنموي تقني، بل فعل ثقافي وأخلاقي يعيد للمعنى حضوره داخل عالم يتجه نحو التثبيء والنسيان.

فالمدينة التي تفقد حرفها، لا تفقد فقط نشاطاً اقتصادياً، بل تفقد جزءاً من ذاكرتها وروحها الاجتماعية.

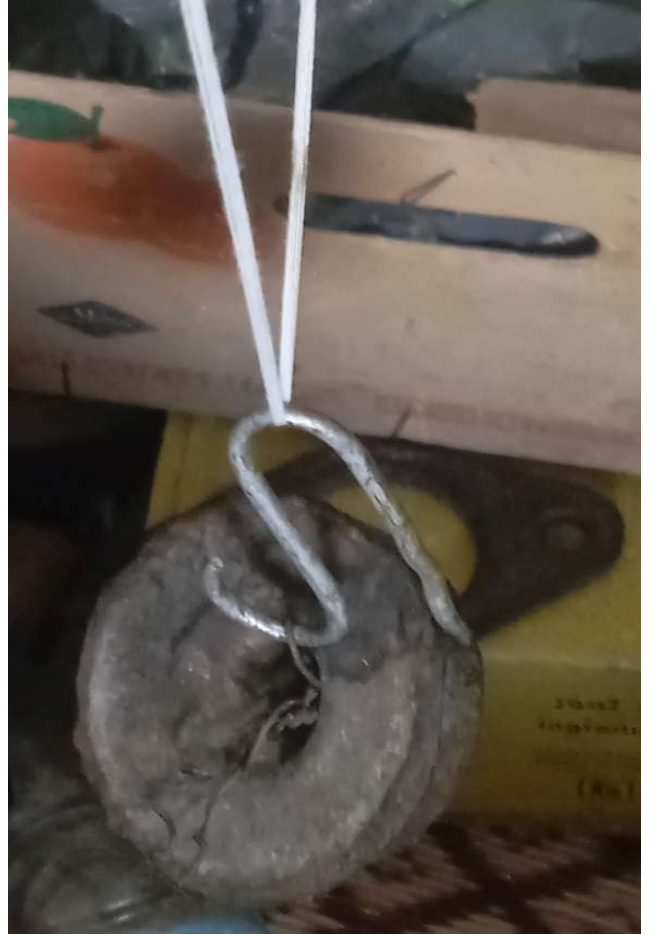
خاتمة تركيبيّة :

تكشف هذه الدراسة، من خلال محورها النظري والميداني، أن الحايك الوزاني لا يمكن اختزاله في كونه لباساً تقليدياً أو أثراً من آثار الماضي، بل يمثل موضوعاً أنثروبولوجياً متكاملًا تختزن داخله الذاكرة الجماعية، والقيم الرمزية، وأشكال العيش والتفاعل داخل المجتمع المحلي. فمن خلال إعادة قراءة الكلمة التي شاركنا بها في المهرجان الوطني الثاني للحايك بمدينة وزان، اتضح أن كثيراً من الأفكار التي تمت صياغتها انطلاقاً من الملاحظة الميدانية والتفاعل مع الفاعلين المحليين، تلتقي مع التصورات التي بلورها أربغون أبادوراي في "أنثروبولوجيا الأشياء"، خاصة ما يتعلق بالحياة الاجتماعية للأشياء، وانتقالها من مجرد مواد استعمالية إلى حوامل للمعنى والهوية والذاكرة.

لقد أبانت هذه القراءة أن الحايك يعيش تحولات متعددة، تنتقل به من المجال اليومي إلى المجال الرمزي والثقافي والاقتصادي، حيث يصبح موضوعاً لإعادة التملك الثقافي، وعنصراً من عناصر بناء الانتماء المحلي. كما أظهرت المعطيات الميدانية التي أنجزها طلبة ماستر الأنثروبولوجيا والمجتمع والثقافات أن الحايك ما يزال يحتفظ بحضوره داخل الوعي الجماعي، ليس فقط باعتباره تراثاً مادياً، بل باعتباره ثقافة حية قادرة على إنتاج معاني جديدة مرتبطة بالسياحة الثقافية، والاقتصاد التضامني، والصناعة التقليدية، وتمكين النساء الحرفيات، وإعادة الاعتبار للذاكرة المحلية.

ومن خلال هذا التداخل بين النظرية والميدان، يتبين أن التنمية لا تتحقق فقط عبر المشاريع الاقتصادية الكبرى، بل يمكن أن تنطلق أيضاً من ترميم الرموز الثقافية المحلية وإعادة إدماجها في الدورة الاجتماعية والاقتصادية. فالحايك، باعتباره “شيئاً اجتماعياً”، يمتلك القدرة على خلق روابط بين الماضي والحاضر، وبين الهوية والتنمية، وبين الذاكرة الجماعية وآفاق المستقبل. وعليه، فإن هذا العمل يشكل محاولة أولية لفتح نقاش أنثروبولوجي حول إمكانات التراث المحلي في إنتاج تنمية ذات بعد إنساني وثقافي، ويؤكد في الآن ذاته أهمية العمل الميداني في الكشف عن المعاني العميقة التي تحملها الأشياء داخل المجتمعات، خاصة حين ننظر إليها بوصفها كائنات اجتماعية تعيش وتتغير وتنتج العلاقات والمعاني باستمرار.

الملحق الأول: تقنيات الدرازة في ورشات وزان العتيقة :



ثقالة البرتول



الوساسد



المنسج

الملحق الثاني: صور مقابلات مع المشاركين في البحث



مقابلة ميدانية مع الحرفي سي عبد السلام في ورشته

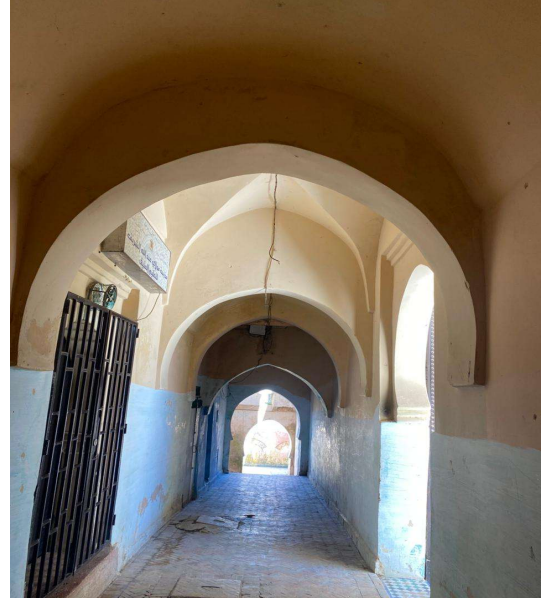
صور من الميدان



الملحق الثالث: فضاءات وزان



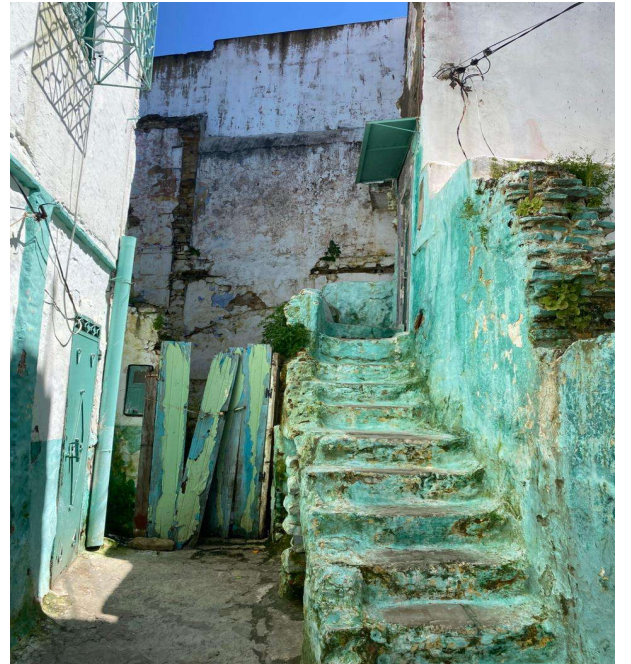
مدخل المسجد الأعظم



المدرسة، مكان يصلي فيه الحرفيين، " الصلاة المزروية"



الدرية ديال واحد المؤدية إلى منزلنا



بقايا مساكن اليهود بوزان(الملاح)

الملحق الرابع: صور المهرجان الوطني الثالث للهايك المنظم من طرف جمعية التنمية المستدامة بوزان



لقاء صحفي حول الحايك الوزاني

المناسبة:

تتشرف رئاسة الجمعية على تكريم الأستاذ عزيز الطويل بمناسبة مشاركته في تأطير ندوة فكرية.

موضوع الندوة:

حول المجال والتراث الوطني في إطار فعاليات مهرجان "وزان عمق التراث" (قراءة في توظيف التراث داخل السياسات الثقافية والاحتفالية المحلية).

الزمان:

من 23 إلى 25 ماي 2025

والتدخل يوم: السبت 24 ماي 2025

المكان:

المركز الثقافي بوزان
الشعار الثقافي للمهرجان: "وزان عمق التراث"



نص مشاركتي العلمية بالمهرجان:

في مهرجان الحايك في نسخته الثالثة بمدينة وزان العامرة، في هذه المناسبة وهذه اللحظة ذات المعنى القوي والقيمة العالية والمستوى المتألق، يتحتم علينا جميعا، هنا والآن، ان نستوقف الزمن لنسائل الذاكرة والتاريخ كيف كان الحايك الوزاني متاعا لاجيال، ورمزا لهوية وانتماء، وايقونة لامعة لأصالة وعمق في التراث. الحايك تركيبة متناسقة من الالوان والظلال لانوثة مهيبة ذات حضور بهي في الوجدان والخيال تمتد من جسد وكيان المرأة الوزانية وتنتشر في الاشياء والامكنة والدكاكين والازقة والمنازل والدروب. الحايك الوزاني ليس مجرد حياكة، ولكنه حكي. ليس مجرد تطريز ولكنه طراز. ليس مجرد خيوط وصفوف ولكنه خطوط حياة وعيش ومسارات احلام وتطلعات. الحايك الوزاني في براعة نسجه تكمن سيرة التألق والمثابرة والصبر العصبي لالف صانع وصانع و الف امرأة وامرأة يعانقان طقوس مهارتهما. الحايك الوزاني في ثباته وطيباته تختزن الف قصة ورواية تحكي دفاء حيوات، وعمق معان وتشابك علاقات وتفاعلات انسانية عامرة. كان الحايك حجابا ولكنه لم يكن ككل حجاب، لم يكن مجرد حجاب. لقد كان يكثر معاني الحشمة والحياء والستر والخفر الانثوي والخلق النبيل للمرأة الوزانية، ولكنه في نفس الوقت كان يشي بأفضل أمارات الجمال والحسن والفتنة الطبيعية في بمائها. سحر العيون واشراقها لا يمكن ان يظهر للرائي الا من خلال فتوق الحايك وعتماته معلنا عرس الجمال الباهر في غير ما حاجة الى مساحيق واصباغ.

لهذه المعاني والاشارات العميقة الدالة على عراقة التقليد الوزاني في نسج الحايك والتزين به وجعله من متاع الحياة، يكون الاحتفاء بهذا الموروث الثقافي اساسا لإنعاش ذاكرة الاجيال المقبلة، وعماملا لتكريس التقاليد الايجابية في حياتنا كي لا يطاها النسيان. ولذلك فان اقامة هذا المهرجان مناسبة سانحة لتقديم اسمي ما يمكن تقديمه للمنظمين من آيات الشكر والامتنان الموصول بالشكر والثناء للمرأة الوزانية التي تعتبر نموذجا من نماذج الجمال الجسدي والروحي ببلادنا. وهنينا لنا كلنا بما نحن صانعوه من اجل استمرار هذا التقليد الثقافي الذي يمكن ان يكون قدوة لغيرنا في مدن او اماكن او فضاءات اخرى.

البيبلوغرافيا :

- العطري، عبد الرحيم، أنثروبولوجيا السوق والتسوق: التأويل الثقافي للممارسات الاقتصادية، فاس: مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، سلسلة إصدارات مركز ابن خلدون لدراسات الهجرة والمواطنة، الكتاب رقم 45، الطبعة الأولى، 2026.
- بومداسة، هشام، إثنوغرافية الدرازة الوزانية: نحو دراسة سوسيو ثقافية للتركيبة الاجتماعية للحرفة — حكاية حرفة تقليدية، القرويين للنشر، المغرب،.
- بورديو، بيير، مفهوم الهابيتوس عند بورديو، ترجمة طارق عثمان، مركز نماء للبحوث والدراسات، سلسلة أوراق نماء، العدد 98،
- قاسم، سيزا، زمن الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2004.
- الطويل، عبد العزيز، "أنثروبولوجيا الأشياء وذاكرة المكان: الحايك الوزاني وسيرة المعنى في زمن العولمة"، مداخلة علمية ضمن فعاليات المهرجان الوطني للحايك، تنظيم جمعية التنمية المستدامة، المركز الثقافي بمدينة وزان، المغرب، 2025.
- H.mitterand "Le Discours du roman " P.U.F 1980
- Halbwachs, Maurice, *La mémoire collective*, Paris, Presses Universitaires de France (PUF), 1950.
- Perrot, Philippe, *Une histoire du costume*, Paris, Éditions du Seuil, 1981.